هوليود والشرق الإسلامي.. بداية غير موفقة!

هوليود.. عاصمة الفن السابع

في مطلع القرن العشرين، بدأت السينما بشق طريقها إلى قلوب الناس الذين أُخذوا بما تعرضه تلك الآلة العجيبة من صور متحركة، وبدا واضحاً أن هذا الفن الجديد سيحتل مكاناً بارزاً بين الفنون الستة التي عرفتها الشعوب السابقة بدءاً من التلوين والرسم ووصولاً إلى المسرح، وربما لم يكن قد خطر ببال رواد هذا الفن آنذاك أن يتحول فنهم إلى صناعة قائمة بذاتها، وأن تتحول أهدافها من تسجيل الأحداث اليومية إلى وسيلة لنشر الثقافة أو لبث الدعاية السياسية والإيديولوجية على النحو الذي بدا شائعاً قبل نهاية القرن.

تنازع كل من الأمريكي (توماس أديسون) والأخوان الفرنسيان (لوميير) شرف هذا الاختراع، لذا انتشرت صناعة السينما في كل من أوربا والولايات المتحدة بالتوازي وفي وقت واحد أواخر القرن التاسع عشر، وعندما اختار المخرج (**سيسل بي ديميل**) ضاحية هادئة من ضواحي لوس أنجلوس تسمى هوليود لتصوير فيلم (الكاوبوي) الصامت (**رجل المرأة الهندية**) لم يخطر ببال أحد حينها أنها ستصبح فيما بعد عاصمة لواحدة من أضخم صناعات العالم الحديث، ولتبلغ مبيعاتها في هوليود وحدها ما يقارب ٨٥ مليار دولار كل عام.

بدأت شركات الإنتاج الناشئة بصناعة أفلامها الصامتة الأولى وعرضها على الجمهور بهدف التسلية لا غير، ووجدت الفرق المسرحية الجوالة

في هوليود مهنة أكثر ربحاً وأقل جهداً. لم يحظ الممثلون بالشهرة آنذاك ولم تكن أسماؤهم تعلن على الجمهور، إلى أن أُدرج اسم الممثل (فلورنس لورنس) لأول مرة في أحد أفلامه عام ١٩١٠، ثم تطور الأمر بسرعة حتى أصبح الممثل النجمَ الأول للفيلم بدلاً من المخرج والكاتب في كثير من الأحيان.

أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها؛ وجدت السينما الأمريكية نفسها بدون منافس، فبينما انشغل الأوربيون بصناعة الأسلحة وإعادة بناء ما دمرته الحرب، ازدهرت حياة الترف في هوليود بجوها المشمس وتلالها الخضراء وقصورها الباذخة، وأصبحت قبلة المستثمرين في صناعة الترفيه والهاربين من جحيم الحرب في أوربا، أو من بقية الولايات الأمريكية التي لم تحقق سياساتها الاقتصادية أحلامهم.

وبعد انفراج أزمة الكساد الأمريكي في نهاية العشرينيات، تسارعت وتيرة الإنتاج في هوليود وأُسست فيها البنية التحتية اللازمة لمنافسة الاستوديوهات الأوربية العملاقة، والألمانية منها على وجه الخصوص، وأصبحت صناعة الترفيه قطاعاً اقتصادياً مستقلاً بذاته، يعمل فيه آلاف الموظفين من الكتاب والمخرجين والنجوم والفنيين، إلى جانب المنتجين والموزعين والإداريين المتخصصين بتنظيم أعمال هذه الصناعة، فسارعت السلطات الأمريكية إلى سن القوانين لتنظيمها، ووضعت لها عدداً من الضوابط الأخلاقية؛ مثل حظر مشاهد الإغراء والألفاظ السوقية، ثم تراجعت حدة الرقابة الأخلاقية مع التقلبات الثقافية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية.

وبعد مرور أكثر من قرن على اختراع آلة التصوير السينمائي، ما زالت السينما تكافح في سبيل الوفاء لبذورها الأولى في تربة الفن والإبداع، ولتحمل في ثمارها خلاصة الحس الإنساني وتفلسف العقل البشري، كما

هو حال الفنون والآداب الراقية، ولكن ظروف القرن العشرين أعطت السيادة للجوانب الأخرى التي حولت هذا الفن إلى صناعة تخضع لقواعد السوق الصارمة، وإلى وسيلة إعلامية تعكس في أحسن حالاتها ثقافة المجتمع الذي تنشأ فيه، وتتأثر بالحراك الاجتماعي وبالتقلبات السياسية والفكرية التي تعصف به، وأيضاً بالتطورات التكنولوجية والاكتشافات العلمية التي يكتسبها. لذا أصبحت هوليود البيئة الأكثر ملاءمة لغرس بذور الثقافة الأمريكية، ومن ثم لجني ثمارها وتصديرها إلى العالم كله، مما جعلها محط أنظار المهتمين بالتأثير والتغيير فضلاً عن الربح، ولتتحول هوليود من مجرد مركز للترفيه إلى ساحة للصراع بين القوى المختلفة، وإلى واحدة من أهم أذرع الدعاية الموجهة (البروباغاندا) لمصلحة الطرف الأقوى!

كيف قدمت هوليود صورة العرب والمسلمين؟

حسب شهادة البروفسور (**جاك شاهين**) أستاذ الاتصال في جامعة (إلينوي الجنوبية) والمستشار السابق لشبكة (CBS) التلفزيونية لشؤون الشرق الأوسط، فإن نحو ٢٥٪ من الأفلام التي أنتجتها هوليود في تاريخها تحقر بشكل أو بآخر العرب، إذ شاهد الأستاذ شاهين نحو ألف فيلم هوليودي مما أنتج بين عامي ١٨٩٦ و٢٠٠٠م ولم يستطع أن يجد أكثر من ١٢ حالة إيجابية فقط للعرب والمسلمين، إلى جانب ٥٢ حالة يصنفها على أنها معتدلة من وجهة نظره، في حين تبقى الأفلام المتبقية ذات صور سلبية ومسيئة!.. حيث لا تكاد صورة العرب والمسلمين تخرج عن إطار الصور النمطية القليلة المعروفة[١]، التي تطورت عبر مراحل

(١) يربط العقل البشري عادة بين الأفكار والصور والمعتقدات بطريقة شرطية، فعندما نشاهد فرداً من جماعة عرقية أو دينية ما يمارس الاحتيال مثلاً في تعامله مع =

مختلفة خلال القرن العشرين، ففي أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين اقتصرت هذه الصورة على ما يعرفه الغرب من قصص الرحالة الأوربيين وأساطيرهم عن الشرق الغامض المليء بقصص السحر والجان، حيث الصحراء الواسعة التي تملؤها عصابات قطاع الطرق وتتخللها الواحات الخضراء، والتي يكتشف فيها الرحالة الأوربي قصراً منيفاً للباشا المحاط بجَوارٍ حسناوات لا يفعلن شيئاً سوى الرقص، ولا يكتمل القصر إلا بقبو للتعذيب، وخدم يرقّصون الأفاعي على ألحان الناي. وجسدت هوليود هذه الصور النمطية بإنتاجها ما بين أربعة أفلام وستة كل عام خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٠ و١٩٢٠.

ومع ظهور النفط في الربع الأول من القرن العشرين تغيرت هذه الصورة ليتحول العرب من قطاع طرق إلى ملوك نفط متخمين، وتضخمت هذه الصورة في بداية السبعينيات بعد معاناة الأمريكيين من ارتفاع أسعار النفط إثر قرار العرب بقطع إمداداته عن الغرب إبان حربهم مع الكيان الصهيوني، وهو القرار الذي أعقبه تهديد الرئيس الأمريكي (ريتشارد نيكسون) ووزير خارجيته اليهودي (هنري كيسنجر) بأنهما لن يسمحا لمجموعة من البدو المتخلفين الذين يغمسون أقدامهم في بحيرات من النفط بالتحكم في مصير أمريكا.

النفوذ الصهيوني المبكر في هوليود قام بدور كبير في تشويه صورة العرب والمسلمين، إذ بدأ هذا النفوذ بعد عامين فقط من انعقاد المؤتمر

= الآخرين، فستربط أدمغتنا لاشعورياً بين جماعته والاحتيال. وعندما تُعرض علينا صورة أخرى لأحد أفراد تلك الجماعة في وقت لاحق، تستدعي أدمغتنا على الفور صفة الاحتيال التي ارتبطت بها وينشأ اقتران شرطي بين الاثنين، وتصبح تلك (الصورة النمطية/ Stereotype) جزءاً من قناعاتنا اللاشعورية في التعامل مع جميع أفراد هذه الجماعة.

الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ مع فيلم (**درايفوس**)، الذي تلاه صدور عشرات الأفلام التي تكرس فكرة الهجرة إلى أرض الميعاد أو تجسد الأساطير اليهودية وتروّج لها. وبالتزامن مع حركة الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين؛ تصاعد الدعم السينمائي في هوليود لما يسمى بالقضية الصهيونية، وكانت النتيجة إنتاج عشرات الأفلام خلال العشرينيات والثلاثينيات ومنها (**الوعد الكبير**)، (**ملك الملوك**)، و(**بيت أبي والشيخ**)، كما اختارت المنظمة الإرهابية الصهيونية (آرجون) الكاتب والمنتج والمخرج السينمائي (بن هيشت) لتمثيلها في هوليود في منتصف الثلاثينيات.

ومع إعلان قيام دولة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين عام ١٩٤٨، حملت هوليود على عاتقها مهمة الترويج المجاني لنشوء هذه الدولة وإظهارها في صورة الحمل الوديع المحاط بقطيع من الذئاب، وقام بهذه المهمة عشرات الصهاينة الذين كانوا قد سيطروا بالفعل على أهم شركات الإنتاج ومحطات التلفزة، واعتمدوا سياسة الإنتاج المشترك وغير المعلن مع مركز الفيلم الحكومي الصهيوني، ونجحت هذه السياسة في تأمين المزيد من دعم النجوم الباحثين عن الشهرة والمجد، الذين وجدوا في تعاطفهم مع إسرائيل طريقاً مضموناً للنجاح، وكان من أهم نتاجات هذه المرحلة فيلم (**سيف في الصحراء**) المنتج عام ١٩٤٩، الذي يتنكر للدور البريطاني في قيام دولة الصهاينة، ويقدم الولاء للولايات المتحدة التي انتقل إليها مركز الثقل العالمي. كما أدّى (كيرك دوغلاس) سنة ١٩٥٣ دور البطولة في فيلم (**الحاوي**) وهو أول فيلم يُصور على أرض فلسطين، التي يقدمها في صورة الوطن الوحيد لليهود الناجين من محارق ألمانيا النازية.

أما فيلم (**الخروج**) للمخرج الصهيوني (أوتو بريمنجر) فقد شبّه الفلسطينيين بالهنود الحمر الذين **استحقوا** الإبادة على يد الأمريكيين

البيض القادمين من أوربا، ممهّداً الطريق لأفكار **إبداعية** أخرى في تشويه صورة العرب على مدار العقود المقبلة.

مع اندلاع حرب **١٩٦٧** تكثفت جهود هوليود لدعم إسرائيل بمختلف الوسائل الممكنة، ففي فيلم (**جوديث**) للمخرج (دانييل مان) تُشوّه صورة السوريين إلى درجة تجعل البطل الألماني الهارب إلى سورية من الاضطهاد النازي يتحسّر على الأيام الخوالي التي قضاها في ألمانيا. ولم يكتف صهاينة هوليود بدعم كيانهم المزروع على أرض فلسطين من خلال أفلامهم، بل قام بعضهم، بقيادة (جيري لويس)، بتنظيم مظاهرات تؤيد الكيان الصهيوني خلال الحرب، ورفَعوا خلالها شعاراً في غاية الوضوح: "ادفع دولاراً.. تقتل عربياً"! كما توسعت جهود هوليود لدعم الكيان الصهيوني سياسياً، إذ لا يمكن أن نعزو الأمر إلى المصادفة عندما نعلم أن رئيس وكالة المواهب المسرحية والأدبية في هوليود (مارفن جوذفسون) هو رئيس لجنة العمل السياسي في منظمة العلاقات الإسرائيلية - الأمريكية (إيباك) والتي دشنها نجم الكوميديا اليهودي (وودي آلان)، خصوصاً أنه أطلق أول نداء لجمع التبرعات في أمريكا من أجل مناصرة قضايا اليهود[١].

في منتصف السبعينيات، ومع اكتشاف فظاعة الجرائم الصهيونية في فلسطين لم يعد من الممكن الترويج لصورة اليهودي الهارب إلى أرض الميعاد من البطش النازي، فتحول الاهتمام إلى تشويه صورة العدو وترويجها في إطار الإرهاب بالتوازي مع صورة البطل الصهيوني الذي لا يقهر، ومن أهم نماذج هذه المرحلة فيلم (**البرعم**) المنتج عام **١٩٧٥**[٢].

---

(١) أحمد زين: هوليود.. صهاينة يرسمون للأمريكان صورة العرب، إسلام أون لاين، ٢٥/٩/٢٠٠١.

(٢) صبحي حمزة: هوليود تشوه صورة العرب والمسلمين، مؤسسة الراية، ٢٣/١٢/٢٠٠٩.

ولم ينته عقد الثمانينيات حتى أُنتج نحو ثلاثين فيلماً لترسيخ هذه الصورة النمطية للمسلم الإرهابي في أعماق اللاوعي عند المشاهد الغربي[١].

تزامن هذا التشويه مع أعمال نضالية نفذها بعض العرب والمسلمين وحملت طابعاً دولياً، مثل عملية الهجوم على الفريق الإسرائيلي في دورة الألعاب الأولمبية في ميونخ عام **١٩٧٢** من قبل منظمة **أيلول الأسود** المنشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية، والتي استلهمت منها هوليود أفلاماً كثيرة بدءاً من فيلم **(الأحد الأسود)** عام **١٩٧٦** وصولاً إلى فيلم **(ميونخ)** عام **٢٠٠٥**، ومثل اختطاف السفينة (أتيل لاورو) عام **١٩٨٥** ومقتل المليونير اليهودي (كلينجوفر) على أيدي المختطفين الفلسطينيين، وهو الذي أصبح بعد مقتله شخصية محورية لعدد من الأعمال الفنية. وكذلك عملية اختطاف طائرة العال الإسرائيلية في مطار عنتيبي في أوغندا[٢]، والتي أعيدت صياغتها مباشرة في هوليود من خلال ثلاثة أفلام شهيرة. هذا بالإضافة إلى حركات الانتفاضة والصراع في لبنان وحروب الخليج والصومال وأفغانستان وباكستان وغيرها من الأحداث التي لا تكاد تتوقف في هذه المنطقة المستهدفة من العالم، وهي الأحداث التي سرعان ما تنتقل إلى استوديوهات هوليود لإعادة إخراجها في أعمال سينمائية وتلفزيونية ومسرحية يشاهدها العالم كله، ولا يظهر فيها إلا الجانب الذي يوافق هوى الطرف الأمريكي- الإسرائيلي، في حين يرمى بالحقيقة إلى عالم النسيان. وهكذا؛ ومع أن الصور النمطية المسيئة لليهود في الأدب

(١) يشكل اللاوعي نظاماً تخزينياً يحتفظ في الذاكرة طويلة الأمد بالمعلومات التي يرفضها العقل الواعي لتعارضها مع المنطق أو القيم الأخلاقية أو المعلومات المختزنة سابقاً، ويؤثر اللاوعي كثيراً في سلوك الإنسان وتقييمه للأمور وردود أفعاله بطريقة لاشعورية.

(٢) المرجع السابق.

والمسرح الأوربيين طوال عدة قرون كانت مترسّخة، فقد نجح الصهاينة وبسرعة قياسية في قلب الطاولة في وجه العالم الغربي وتقديم إسرائيل المعصومة عن الخطأ إحدى أهم المسلّمات المتفق عليها في هوليود، التي لا يمكن خرقها تحت أي مسوّغ كان، وإذا كان أفلاطون قد أعلن في القرن الرابع قبل الميلاد أن «الذين يحكون القصص هم الذين يتحكمون في المجتمع» فمن المقبول إذن تفهّم الدور الذي يؤدّيه اليوم صنّاع السينما والإعلام في التحكم بالرأي العام العالمي.

في بداية العقد الأخير من القرن العشرين شهد العالم أحداثاً كبرى غيرت مجرى التاريخ، فبعد سقوط القطب الشيوعي توجهت أنظار الغرب إلى الإسلام بصفته العدو الأول في ساحة الصراع الاستراتيجي، وتزامن ذلك مع اندلاع حرب الخليج الثانية وإعلان الولايات المتحدة سيادتها على النظام الدولي الجديد. في الوقت نفسه حقق تطور التقنيات السينمائية قفزات قياسية، وأحسنت هوليود استغلالها في إنتاج العديد من الأفلام الضخمة التي واصلت مهمة تنميط صورة (الإرهاب الإسلامي) بما يتناسب مع تطورات المرحلة، ومن أشهر هذه الأفلام فيلم (**أكاذيب حقيقية**) سنة ١٩٩٤ وفيلم (**الحصار**) سنة ١٩٩٨.

مع ذلك؛ شهدت المرحلة نفسها تحولاً جديداً في علاقة هوليود بالعرب والمسلمين، إذ بدأت مفاوضات السلام بين الإسرائيليين والعرب تؤتي ثمارها، كما أحدثت حرب الخليج، والتي نُقلت أحداثها مباشرة عبر أخبار (CNN) للمرة الأولى في تاريخ التلفزيون، وعياً جديداً في الشارع الأمريكي تجاه الصراع الخارجي، إذ تؤدي الحروب عادة إلى نوع من الاحتكاك مع الآخر والمفضي إلى قليل من الحوار والانفتاح، وهكذا أصبح من الممكن ظهور أدوار عربية طبيعية أو حتى إيجابية، ففي فيلم (**قبلة الليل الطويل**) (١٩٩٦) يُتهم أحد العرب ظلماً بتهمة

الإرهاب، وفي فيلم (**جريمة كاملة**) (١٩٩٨) يحرص المحقق العربي-الأمريكي على كشف الحقيقة والوقوف إلى جانب سيدة أمريكية مهددة بالقتل على يد زوجها، أما فيلم (**روبن هود أمير اللصوص**) فيُظهر العربي في صورة نموذجية للأمانة والنبل، وبلغت هذه الصورة نضجها التام عندما مثّل (أنتونيو بانديراس) رحلة الفارس العربي المتحضر إلى شمال أوربا المتخلفة في فيلم (**المحارب الثالث عشر**) (١٩٩٩). ومنذ ذلك الحين أصبح من الممكن رؤية صورتين متوازيتين، وغير متكافئتين بالطبع، للشخصية العربية المسلمة في هوليود، وكان من الممكن للصورة الإيجابية أن تشق طريقها بسرعة لولا تدهور العلاقات السياسية وانقلاب الموازين.

ففي مطلع الألفية الجديدة استأنفت هوليود مرحلة جديدة من الدعاية الممنهجة بعد وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، والتي ما زالت الشكوك تحوم حول صحة نسبتها إلى المسلمين، ولكن هذه الشكوك لم تقف حائلاً دون إعلان الحرب على **الإرهاب**، أو على الإسلام كما يرى كثيرون، وكان لا بد للمنتجين في هوليود من مواكبة هذا التطور في الأحداث، فبعد شهرين فقط من وقوع هجمات أيلول/ سبتمبر استدعى أحد مستشاري الرئيس الأمريكي أبرز منتجي ومخرجي هوليود إلى البيت الأبيض للبحث في السبل الممكنة لإشراك هوليود في «الحرب على الإرهاب»[١]. وبالرغم من ذلك، تابعت التيارات المنشقة عن الخط العام في هوليود نموها وأثبت بعض المنتجين والمخرجين قدرتهم على الاستقلال والتحرر، وخصوصاً بعد تفاقم أزمة الوجود الأمريكي في العراق وانكشاف الكثير من أسرار "الحرب على الإرهاب"، كما أن

(١) شخصية العدو في السينما، موقع روسيا اليوم، ١٤/ ١/ ٢٠١٠.

التنميط السطحي والسخيف لكل ما هو عربي مسلم لم يعد مقبولاً كما كان في الماضي، مع أنه مستمر في بعض الأفلام، حيث قامت أدوات العولمة وثورة الاتصالات بدورها في الانفتاح على الشعوب الأخرى وإعادة تقييم الصور النمطية المسبقة بشيء من الموضوعية والاعتدال.